

أصبح إيمانها بالأميرة فتنة لا تشبهها فتنة، وأصبح اسم الأميرة في كل فرد من أفراد الرعية لفظاً يدل على حقيقة واقعة لا على لون من ألوان المجاز؛ فكل فرد من أفراد الرعية مفتون بالأميرة مشغوف بحبها هائم بقدرتها على ابتكار الأعاجيب، وربما كان الملك أعظم من أفراد رعيته جميعاً افتتاناً بابنته وإعجاباً ببراعتها وإكباراً لسحرها هذا الذي ظن به الظنون، ثم تبين أنه لم يوجه إلى الشر كما تعود السحرة من الجن والإنس أن يوجهوا سحرهم، وإنما هو موجه إلى الخير كل الخير، موجه إلى عصمة النفوس وحقن الدماء وإقرار الأمن وحماية الصلات التي تقوم بين الدول على المودة والمعروف. وهو من أجل ذلك يلح على ابنته في عطف مرة وفي استعطاف مرة أخرى أن تكشف له عن أسرار هذا السحر، وأن تبين له دخائل هذه المعجزات، وابنته تطاوله وتماطله، تلطف به حيناً وتعنف عليه حيناً آخر، والعدو من حول المملكة والمدينة ماض في جهاده العنيف السخيف الذي يكلفه كل جهد، ولا يبلغه من وراء هذه الجهود شيئاً.

وتمضي على ذلك الأيام تتلوها الأيام، والليالي تتبعها الليالي، حتى انصرفت رعية طهمان بن زهمان عما كانت ترى، وأعرضت عما كانت تشهد، وأهملت ما كانت تخافه كل الخوف، وازدردت ما كانت تُعجب به كل الإعجاب، ومضت تضطرب في حياتها تستأنف منها ما كانت قد تركته حين أملت بها نذر الحرب، وكان الواحد من الجن من أهل المملكة يغدو على عمله ويروح إلى أهله ويتصرف في أمره كأن وطنه لم يتعرض لمحنة ولم يلم به مكروه، وكأن جند العدو لا يملأ من حوله البر والبحر والجو، وما يعنيه من عدو يُفني قوته دون أن يبلغ منه شيئاً؟

فلما كان ذات يوم جلس الملك يحاور ابنته ويداورها، يريد أن يعرف منها جلية هذا الأمر الغريب، وهي تلقاه بالإباء حيناً وبالذل والدعابة حيناً آخر، ولكن وزيره يدخل سعيداً متهللاً، فيحيي ثم يؤذن الملك بأن سفراء العدو قد أقبلوا يُلقون بأيديهم ويسألون السلم.

قال الملك: «فوجه هذا الحديث إلى التي حاربتهم فَحَرَبْتَهُمْ، فأما أنا فلست لكم بملك منذ اليوم؛ لقد أخذت نصيبي من الملك وتركت ما بقي منه لابنتي هذه؛ فهي ملكتكم منذ الآن، وهي التي ستلقى السفراء وستملي عليهم شروط السلم كما تشاؤها هي لا كما أشاؤها أنا.»

ثم نهض الشيخ متثاقلاً فضم ابنته إليه ضمّاً طويلاً، ثم أجلسها مكانه وقَدَّمَ إليها تحية الملوك. هنالك تقدم الوزير إلى الملكة فحيّاها تحية الملك، ثم خرج فأذّن في القصر